

الفصل الثالث

الاساس الاجتماعي

(المحاضرة التاسعة)

اولاً : مفهوم الضبط الاجتماعي

يعد موضوع الضبط الاجتماعي من اهم الموضوعات التي تناولها العلماء والمفكرون ، واهتم به علماء التربية والاجتماع وعلم النفس لصلته الوثيقة بتنظيم المجتمعات وحياة الافراد داخل هذه المجتمعات .

ولا يزال موضوع الضبط الاجتماعي يعاني كثيراً من الخلط والغموض ، ويرجع ذلك بالدرجة الاولى الى اختلاف العلماء انفسهم في مسألة تحديد مفهوم الضبط الاجتماعي ، وعدم اتفاقهم على تعريف واضح محدد له ، وكذلك عدم اتفاقهم على ميدان الضبط الاجتماعي وحدوده بوصفه عملية تتطوي على كثير من المضامين والمفاهيم التي تتدخل في تحديد ابعاده ووظائفه بالنظر الى اسسه ومجالاته النظرية والعملية .

وقد وردت اشارات الى مسألة النظام والقواعد المنظمة للسلوك والسلطة في كثير من الكتب القديمة ، حيث تعرض فلاسفة اليونان القدماء لمسألة الضبط الاجتماعي ، ولكنهم استخدموا مصطلحات اخرى : كالقانون او الدين او العرف او الاخلاق .

غير ان اول رائد لمفهوم الضبط الاجتماعي هو العلامة العربي " ابن خلدون " الذي اشار في مقدمته الى الضبط الاجتماعي بصورة اكثر وضوحاً وتحديداً في قوله : " ان الاجتماع للبشر ضروري ولا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون اليه ، وحكمه فيهم اما

ان يستند الى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه وايمانهم بالثواب والعقاب عليه ، او الى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليه ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم ، فالاولى يحصل نفعها في الدنيا والاخرة ، والثانية انما يحصل نفعها في الدنيا فقط " . كما يرى ان " الانسان بحاجة الى سلطة ضابطة لسلوطه الاجتماعي ، وان عمران المدن بحاجة الى تدخل ذوي الشأن والسلطان من اجل فاعلية النوازع وحماية المنشآت . ووسائل الضبط التي تحقق هذه الغاية تتمثل في : الدين ، والقانون ، والآداب العامة ، والاعراف ، والعادات ، والتقاليد ... " .

ثانياً : الضبط ضرورة اجتماعية

الانسان بطبيعته اجتماعي ، لا يستطيع العيش وحيداً ولا بد ان ينتمي الى جماعة يستمد منها القوة والطمأنينة ، ويسهم مع الآخرين في تحقيق الخير والمعيشة الكريمة . وقد بدأت المجتمعات البشرية بمجتمع العائلة ، ثم توسعت الى مجتمع القبيلة ومجتمع القرية ومجتمع المدينة حتى اصبحت مجتمعات قومية .

وترتكز المجتمعات في بنيتها على العناصر التالية :

- قيم اخلاقية يؤمن بها افراد المجتمع ، وتمثل الاهداف والغايات التي يسعون الى تحقيقها.

- ترجمة قيم الجماعة الى انظمة وقوانين واعراف تلتزم بها الجماعة في نشاطهم وسلوكهم ، ويعتبرون من يخالفها مذنباً يستحق العقاب . وفي كل جماعة من الجماعات تنشأ طائفة من الافعال والممارسات والاجراءات والطرق التي يزاولها الافراد لتنظيم احوالها والتعبير عن افكارهم وما يجول في مشاعرهم ، ولتحقيق الغايات التي يسعون اليها .

وعندما تستقر هذه الافعال في شعور الجماعة وترسخ في عقول الافراد تصبح قواعد ملزمة ، تكون نظاماً مختلفة الى التنظيم الاجتماعي الذي يركز عليه استقرار المجتمع . وقد اعتبر العالم " هريبرت سبنسر " المجتمع كائناً عضوياً يشبه من كل نواحيه وخصائصه ومقوماته ووظائفه الجسم الحي ، كما انه يتطور كما تتطور الكائنات العضوية ، فكما ان للجسم العضوي بناء عام او هيكل يضم مجموعة من الاعضاء الداخلية كالقلب والمعدة والامعاء ، ولكل عضو من هذه الاعضاء وظيفة معينة تتفاعل مع وظائف الاعضاء الاخرى من اجل ابقاء الجسم او البناء العضوي حياً ، كذلك للمجتمع بناء او هيكل عام يضم مجموعة من النظم (كالنظام السياسي والاسري والاقتصادي ...) . ويقوم كل نظام بأداء وظيفة محددة ، في اطار اشباع حاجات اعضاء المجتمع ، وتتفاعل هذه النظم مع بعضها بحيث تبقي المجتمع قائماً بذاته .

واذا حدث خلل جوهري في وظائف أي عضو من اعضاء الجسم ، فإنه يمرض وقد يصل الى الوفاة ، كذلك فان اختلال أي نظام من نظم المجتمع يؤدي الى ظهور الامراض الاجتماعية متمثلة في الجريمة والتفكك الاسري وانحراف الاحداث والتسيب ... الخ ، وكما ان الجسم الانساني يموت فان المجتمع يمكن ان يتفكك وينحل . وعلى هذا ، فقد ذهب كل من اوجبرن ونيمكوف Ogburn and Nimkoff ، الى ان دارسي علم الاجتماع ، يستخدمون اصطلاح الضبط الاجتماعي بطريقة عامة جداً في وصف كل الوسائل ، التي تستخدمها الجماعة في تحقيق النظام الاجتماعي . ويترتب على هذا الاستخدام ، ان العادات الشعبية ، وتقسيم العمل ، مثلاً يمكن تصنيفهما من وسائل الضبط الاجتماعي ، ما دامتا يساعدان على استمرار الجماعة وتكاملها . فالضبط ، في

نظرهما ، هو العمليات والوسائل ، التي تستخدمها الجماعة في تضيق نطاق الانحرافات عن المعايير الاجتماعية .

ان كل عرف اجتماعي ، وكل مظهر من مظاهر السلوك العام ، هو الى درجة ما ، وسيلة للضبط الاجتماعي ؛ بل ان ابسط قواعد السلوك ، او ابسط مظاهر التقاليد او آداب السلوك العام ، هي ادوات ووسائل للضبط الاجتماعي .

١ - اهمية الضبط الاجتماعي ، وتكثور الاهتمام به

لقد نال موضوع الضبط الاجتماعي عناية كثير من علماء الاجتماع ، منذ ان قرر ابن خلدون ، ان الضبط الاجتماعي اساس للحياة الاجتماعية ، وضمان لامنّها ، واستمرار لبقائها . فهو يقول ان الاجتماع الانساني ضروري ، اذ ان الانسان مدني بطبعه ، أي لا بد له من الاجتماع ، الذي هو المدنية . ثم ان هذا الاجتماع ، اذا حصل للبشر ؛ ومن ثم ، عمران العالم بهم ، فلا بد من وازع ، يدفع بعضهم عن بعض ؛ لما في طباعهم الحيوانية من العدوان ، والظلم . ويقول ، في موضع اخر ، انه لا بد للبشر من الحكم الوازع ، أي الحكم بشرع مفروض من عند الله ، يأتي به واحد من البشر ؛ وانه لا بد ان يمون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ، ليقع التسليم له ، والقبول منه ؛ حتى يكون الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ، ولا تزيف .

ومن العلماء ، الذين اسهموا في دراسة عملية الضبط الاجتماعي والاجتماع القانوني ، مونتسكيو Montesquieu ، في كتابه " روح القوانين " حيث اشار الى ان لكل مجتمع قانونه ، الذي يلائم بيئته ، الطبيعية والاجتماعية ؛ أي انه اكد العلاقة بين القانون ، والضبط ، والظواهر الاجتماعية ، والنظم . وتتبع من هذه العلاقة روح عامة ، تؤثر في السلوك

الاجتماعي ، وتضبط التصرفات ، وتؤثر في المؤسسات والمنظمات ، الاجتماعية والقانونية .

وقد ازداد الاهتمام بموضوع الضبط الاجتماعي ، على يد عالم الاجتماع الامريكي ، ادوارد روس Edward Ross ، الذي اكد اهمية الضبط الاجتماعي في الحياة الاجتماعية ، وحفظ كيان المجتمع . ثم تطورت دراسة الضبط ، في الفترة الاخيرة ، بازدياد الابحاث ، التي اجريت على الجماعات وعمليات التفاعل الاجتماعي ؛ وما تمخضت به من ابراز لموضوعات جديدة في علم الاجتماع ، كمستويات الفعل الاجتماعي ، والمعايير الاجتماعية ، والقيم والقواعد العامة للسلوك . لذا رأى علماء الاجتماع ، ان الضبط الاجتماعي ، اصبح ، في الواقع ، مرادفاً للتنظيم الاجتماعي Social Organization ، على اساس ان التنظيم الاجتماعي ، يشير الى القيود والانماط كافة ، التي يتولد منها الانضباط والنظام الاجتماعي ؛ وان كان الضبط الاجتماعي يقتصر ، في اكثر اشكاله شيوعاً ، على التأثير الناجم عن الاجهزة الرسمية . كما اهتم علماء الاجتماع بربط الضبط الاجتماعي ربطاً وثيقاً بالثقافة . وجعلوا من العسير دراسة الضبط الاجتماعي بعيداً عن علم اجتماع الثقافة . مثال ذلك ، ان جورفيتش Gorfetsh ، يرى ان الضبط هو مجموع الانماط الثقافية ، التي يعتمد عليها المجتمع عامة في ضبط التوتر والصراع . فالضبط ، اذاً ، وسيلة اجتماعية او ثقافية ، تفرض قيوداً منظمة على السلوك الفردي او الجماعي ، لجعله مسائراً لقيم المجتمع وتقاليده .